

الإمام الحسُيَنُ في الفضاء الافتراضي: موقع العَتَبَة الحُسينيّة المقدّسة نموذجا

علي بنعلي

باحث تونسي

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 15 يوليوز 2024

الإمام الحسُيَنُ في الفضاء الافتراضي:
موقع العَتَبَة الحُسينيّة المقدّسة نموذجا

الملخّص:

يندرجُ البحث ضمن دراسات الدّين الرّقميّ Digital Religion. ويهتمّ بالحفر في صورة الإمام الحُسيْن بن علي بن أبي طالب كما تبدو في فضاء السّيبر الشّيعي الإماميّ من خلال موقع «العتبة الحُسينيّة المقدّسة» https://imamhussain.org/arabic≠hajj. ويتأسّسُ على افتراض يدّعي أنّ تجربة الدّين السّيبرانيّ في السّياق العربيّ والإسلاميّ ليست مجرّد حركة انتقال من الفضاءات التّقليديّة الواقعيّة للدّينيّ off-line إلى فضاء افتراضيّ online، وإنّما هي حركة انتقال من ثقافة كتابيّة وعقل كتابيّ إلى ثقافة رقميّة وعقلانيّة رقميّة، فهي حركة منخرطة في سياق ثقافة تحفر عميقا في أنظمة الاعتقاد وأبنية الفكر وأنساق المعرفة، فتغيّر مشهد الدّينيّ رموزا ومصادرَ وطقوسا وممارسات شعائريّة.

لكنّ المؤسّسات الدّينيّة بوصفها أجهزة مشكّلة تشكيلا دينيّا وسياسيّا واجتماعيّا صارما يضمن توازن الأنساق العقديّة والمعرفيّة ويحفظ حياتها، ويُديمُ أثرَها في نفوس الأتباع، ويضمن لُحْمَة المجموعة المؤمنة، هي مؤسّسات تُحْذقُ جيّدا لعبةَ التّكيّف مع متغيّرات البيئة حذقها لأساليب الاستفادة من رصيدها التّراثيّ ورأسمالها الرّوحيّ والرّمزيّ. ولذلك، يلحظ الباحثُ في المواقع الإلكترونيّة الدّينيّة في الفضاء العامّ الجديد أنّها تلوذُ، دائما، بمرتكزاتها العقديّة ومصادرها الثّقيلة، سواء كانت نصوصا أو خطابات أو شخوصا أو أماكن مقدّسة أو طقوسا، تركزها في قلب البيئة التّكنولوجيّة لتكون نواة مُشعّة فيها، وآليّة سحريّة لصناعة المعنى المقدّس وإعادة ربط الأتباع بما يُعَدّ من ثوابت هُويّتهم الدّينيّة في فضاء يُخْشى فيه من ذوبان الهُويّة وانهيار السّرديّات الكبرى وتضاؤل جاذبيّة الرّموز القديمة.

ولذلك، فإنّ الرّموز الدّينيّة في فضاء السّيبر العربيّ لا تفْقِدُ طينَها القديم الذّي منه قُدَّتْ، ولكنّها تلْبسُ من حُلّة الرّقميّ القشيب ما به تتجدّدُ صُوَرًا وقيمة لتنهض بأدوار جديدة في الفضاءيْن الافتراضيّ والواقعيّ معا.

مقدّمة:

يتمتّع الحُسيْنُ بمكانة رمزيّة راسخة في ضمائر المسلمين على اختلاف فكرهم الدّينيّ قديما وحديثا، ولكنّه في التّأويليّة الشّيعيّة ليس مجرّد سِبْطٍ للنّبيّ وواحدٍ من وَلَد عليّ من فاطمة الزّهراء، وليس مجرّد صحابيّ ورجل من أهل بيت النّبوّة، ولا حتّى واحدا من أصحاب الكِساء الخمسة الذّين شملهم التّطهيرُ والأئمّة الاثنيْ عشر المعصومين الّذين عليهم يدور المعتقد الشّيعيّ كلّه، وإنّما هو، خاصّة، الرّمز الرّوحيّ الذّي حوله أعادت الفرقةُ الإماميّة تشكيل هُويّتها الدّينيّة في مرحلة تاريخيّة حاسمة كادت تعْصِفُ بوجودها، ذلك أنّ أحداث كربلاء (61 هـ/ 680 م) تحوّلت عبر سيرورةُ التّاريخ الشّيعيّ من حدث سياسيّ نازع فيه الحُسيْن وأهلُه مُلْك يزيد بن معاوية الخليفة ألأمويّ، إلى حدَثٍ دينيّ بامتياز، حيث وقع تنزيله ضمن الصّراع الأزليّ بين الحقّ والباطل والعدل والظّلم والإيمان والكفر لينخرط في تاريخ الأديان والنّبوّات. وتدرّجا أصبحت حادثة الطّفِّ رمزا من رموز التّشيّع ومرتكزا عقديّا صُلْبًا ومناسبة دينيّة مقدّسة لا تقلّ أهمّية عن موسم الحجّ والعِيدَيْن وأضحت شعارا يختزلُ «ثورة المظلوم على الظّالم وانتصار الدّم على السّيف». أصبحت شخصيّة الحُسيْن جِماعًا لِقيم الحقّ والحرّية والتّضحية ورمزا مُفْعَما بالمعاني يُسخّرهُ الفاعلون الدّينيّون والسّياسيّون لتحريك الأتباع وتوجيههم وضمان لحمتهم من جهة، ولاستقطاب مزيد من الأنصار وإدارة الأحداث الدّينيّة والسّياسيّة من جهة أخرى، حتى إنّ شعار «يا لَثارات الحُسيْن» أصبح أمضى سلاح بيد الشّيعة به يخوضون معاركهم السّياسيّة والعَقَديّة.

ولذلك، بدت لنا شخصيّةُ الحُسيْن كنْزًا سَريّا بيد الفاعلين الدّينيّين الجُدد في الفضاء الافتراضيّ يعقدون حوْلَه نظامهم السّيبرانيّ ويُولّدون من رمزيّاته المختلفة تفاعلات جديدة مع المتديّنين لإعادة إحياء التّعاقدات القديمة إحياء رقميّا. ولكنّ فضاء السّيبر، ليس فضاء دينيّا أسْراريّا، وإنّما هو فضاء عَلْمانيّ؛ وذلك يطرحُ السّؤال عن الكيفيّة الّتي تُعيدُ بها المؤسّسةُ الدّينيّة بعْثَ رموزها؟ وعن مدى قدرتها على إدامة توهّجها الرّوحيّ؟

ويعتمد بحثُنا على حفر تاريخيّ نقديّ في شخصيّة الحُسيْن في المظانّ الورقيّة أوّلا، ثمّ على دراسة تسْترْشِدُ بمناهج تحليل الخطاب السّيبرانيّ ونظريّة التّشكيل الاجتماعيّ للتّكنولوجيا الرّقميّة ثانيا لمقاربة صورة مرجع من أثقل مراجع الشّيعة في موقع اختار أن يكون «عتبة حُسينيّة مقدّسة».

1. الحُسيْن في التّاريخ: مِن الإمامة إلى القضيّة

يتحلّق الخطابُ الشّيعيّ حول عقيدة الإمامة، فهي «قُطب الرّحى الّذي يدور حوله تفكيرُهم المتعلّق بالنّبوّة والوحي والاجتماع والمصير الإنسانيّ». وتدرّجا، تحوّل الأئمّةُ من أهل البيت من شخوص عاديّين عاشوا في التّاريخ إلى دائرة مشعّة في قلب المعتقد الشّيعيّ، بل مجرّة تستقطبُ كلّ أركانه أصولا وفروعا كما تستقطب الكونَ والزّمانَ. لكنّ المصطلحات، كما يُفيدنا الدّرسُ اللّسانيّ الحديث، متنقّلة متحرّكة تكتسبُ دلالات متجدّدة في حركتها عبْر مجالات المعرفة وفي تلبّسها بأحداث التّاريخ وتأثّرها بالسّياقات الثّقافية الّتي تعمل على إحداث تغييرات جوهريّة فيها، حتّى تتكيّف مع المناخات السّائدة وتستجيبَ للرّهانات المعقودة عليها، سواء كانت دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة.

ولذلك ظلّ مصطلح الإمامة، كغيره من المفاهيم/ المفاتح، مصطلحا حيويّا قابلا للتّوظيف وإعادة التّشكيل تزامنا مع النّقلات النّوعيّة الكبرى الّتي شهدها الفكر الدّينيُّ الشّيعيّ، فلم يَعُدْ يعني «تقدّم شخص على النّاس على نحو يتّبعونه ويقتدون به»، ولم يبْقَ عند حدود «خلافة النّبوّة في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا»، وإنّما صار «زعامة ورئاسة إلهيّة عامّة على جميع النّاس وأصلا مِنْ أصول الدّين لا يتمّ الإيمان إلاّ بالاعتقاد بها». وبذلك خرج مفهوم «الإمامة» من مجاله اللّسانيّ التّداوليّ إلى مجال الوحي والتّنزيل ليُصبح مصطلحا قرآنيّا ونبويّا، ويكتسبَ معنًى خاصّا وقْفيًّا لا يخرجُ من آل محمّد وورثتهم آل عليّ، وأصبحت حياة الأئمّة نُسَخًا متطابقة ارتكازا على أنّها تجسيدٌ لبعد روحيّ موَحَّد هو، على الأصل، جوهر تكوينيّ يخرج من روح إلى روح وينغلقُ بالشّهادة. ولكنّ الشّهادة ليست نهاية المطاف، وإنّما هي فاتحة لأدوار جديدة ينهض بها الأئمّةُ في حياة أتباعهم؛ ذلك أنّ أرواح الأئمّة وإن كانت «بمكانها النّائي عن مساكن الظّالمين، فإنّها تُحيط شيعتها عِلْمًا بأتباعها، ولا يَعْزُبُ عنها شيء من أخبارها ومعرفتها بالذّلّ الّذي أصابها».

وعلى الرغم من وَحدة دائرة الإمامة، فإنّ شخصيّة الحُسيْن، حياةً وسيرةً ورمزيّةً وصيرورةً وسيرورةً، قد جسّمت نقلة نوعيّة حاسمة في تاريخ الفكر الدّينيّ الشّيعيّ الإماميّ اعتقادا وممارسة طقوسيّة ورؤية سياسيّة وتنظّما اجتماعيّا، وهي نُقلة استثمرت في المرويّ وفي الأحداث التّاريخيّة عبر عمل المخيال والقراءة والتّأويل لتحدث تحوّلات عميقة في رمزيّة الحُسيْن، حتّى إنّ التّشيّع بعد مقتله اتّخذ مسار جديدا مختلفا عن التّشيّع في زمانه وعن التّشيّع على عهد أسلافه. ولم يكن الحُسيْن نفسه بطل تلك الأحداث بقدر ما كانت البطولة للفاعلين التّاريخيّين رُواةً مُحدّثين وأصحاب سِيَر وتاريخ ومفسّرين وفقهاء ومتكلّمين وشعراء، كما هو الحالُ في كلّ دائرة من دوائر الفكر الدّينيّ العربيّ والإسلاميّ الكلاسيكيّة على اختلافها. وتلتقي أدوارُ الفاعلين أهواء جمهور المتديّنين ومصالح أرباب السّياسة لتصنعَ من الدّنيويّ دينيّا ومن المدنّس مقدّسا ومن التّاريخيّ أزليّا سرمديّا استحواذا على أرواح الأتباع وأزمنتهم.

لم يكن الحُسيْن في معتقد الفِرقة الإماميّة بشرا عاديّا، منذ البدء، فقد وُلِد إماما معصوما «عِنْدَ الله من بعْد [الحَسَن] في الكتاب الماضي، وراثة النّبيّ أصابها مِنْ وراثة أبيه وأمّه»، وكان مولده حدَثا كونيّا ودينيّا عظيما باركه الله في عليائه بأن «أوحى إلى جبريل(ع) أنّه قد وُلِد لمحمّد ابنٌ، فاهبطْ إليه فهنّئهُ وقل له: إنّ عليّا منك بمنزلة هارون مِنْ موسى، فسمِّه باسم ابن هارون (...) فقال: وما اسمه؟ قال «شُبير، قال [محمّد]: لساني عربيّ، قال: سمِّه الحُسيْن، فسمّاه الحسيْن». وظهرت معجزات المولود المبارك في المهد في مشهد يتناصّ مع معجزة السيّد المسيح، فقد مرّ جبرئيل في طريقه لتهنئة محمّد بجزيرة بها مَلَك يقال له فُطْرُسْ، كان الله قد كسر جناحه منذ سبعمائة عام بسبب تأخّره في إنجاز ما كلّفه به، فلمّا «دخل جبرئيل وأخبر محمّدا بحال فطرس، قال له النّبيّ: قُمْ تمسّحْ بهذا المولود، فتمسّح فطرس بمَهْدِ الحُسينع، فأعاد الله عليه في الحال جناحَيْه، ثمّ ارتفع مع جبرئيل إلى السّماء».

ولعلّ الأشدّ طرافة وأهمّية في هذه المرويّات - إضافة إلى وظيفتها الحجاجيّة في الاستدلال على «قداسة» شخصيّة الحُسيْن- أنّها تُرتّبُ أصولا مرجعيّة سيُبْنى عليها الاعتقادُ والممارسة الشّعائريّة لاحقا، فمن ذلك أنّ مولد الحُسيْن سُخِّر مناسبة لتمرير عقيدة الوصيّة والوراثة العامّة، ومنه أنّ تمسّح الملك فطرس بالمهد يُشرّ عُ للمؤمنين الشّيعة زيارةَ قبره والتمسّح به.

وتحوّلت المعجزاتُ الباهرة على غرار إشفاء المرضى وإحياء الموتى نسقا ناظما لحياة الحُسيْن، فهو «مدهش للعقول، مُحيّر للألباب، لكثرة ما صدر منه من معجزات ظاهرات وكرامات باهرات، من حين الحَمْل به والولادة وحتّى الشّهادة وما بعدها». ولم ينفكّ الملك جبرئيل عن صحبته عبر مسيرته الصّاخبة فـ «في كتاب التّخريج عن العامريّ بالإسناد عن هبيرة بن مريم عن ابن عبّاس قال: رأيتُ الحُسيْن قبل أن يتوجّه إلى العراق على باب الكعبة وكفّ جبرئيل في كفّه، وجبرئيل ينادي: هلمّوا إلى بيْعة الله عزّ وجلّ» . وتبدو الرّواية مهمّة من النّاحيتين الدّينيّة والسّياسيّة، ذلك أنّها تفرض سياقا مقدّسا مكانا (الكعبة) وشخوصا (الله/ جبرئيل/ الحُسيْن) وحدثا (بيعة الله)، وهو سياق يستنسخُ بيْعة الرّضوان ويتجاوزها من جهة، ويُناظرُ سياقا آخر كان يحدث ببلاد الشّام مركز الحكم الأمويّ ويتميّز بالإغراق في الدّنيويّ المدنَّس، حيث تستمرّ خيانة وصيّة النّبيّ والتّآمر ضدّ إمامة أهل البيت والانحراف عن «الدّين الحقّ». وبذلك «ألحقه الله تعالى بالنبيّص، فكان معه في درجته ومنزلته».

ويلحظُ الباحثُ أنّ الرّواية الشّيعيّة استطاعت أن تشكّل أحداث حياة الحُسيْن وخاصّة سيرته السّياسيّة تشكيلا دينيّا مقدْسنا، ويظهر ذلك من خلال البناء الملحميّ «لأعظم حادثة في التّاريخ البشريّ كلّه»، وهي حادثة الطّفّ يوم كربلاء سنة 61 هـ ذلك أنّها حوّلت مجرى التّاريخ وحركة الأكوان وسرديّات الأديان وخطّت طريق نجاة أوْحَدَ أمام الإنسانيّة كلّها ورفدت دعوة الإسلام بمعاني جيّاشة تظهر في الحرّية والكرامة ورفض الظّلم، ورفعت شعارا خالدا «الدّم في مواجهة السّيف». وبذلك أعاد المعتقد الشّيعيّ تشكيل مفرداته في «عقيدة المظلوميّة» التّي تسمح بالظّهور الدّائم في ثوب الضّحيّة.

إنّ المَشاهد الحربيّة المغرقة في القتامة، الوالغة في الدّماء الزّكيّة، المفعمة بالصّور العنيفة واللّوحات المثيرة للاشمئزاز، الجارحة للمشاعر، في محيط ملغّم موتا، حيث تحجبُ الرّماح والسّيوف عيْن الشّمس وتتلطّخُ السّماءُ بحمرة قانية لم تعهدها من قبْلُ، ولن تفقدها من بَعْدُ، وتسخر قسوة الوحوش الآدميّة الضّارية من استغاثات النّساء والأطفال، وهم يشهدون دوْرًا بعْدَ دوْرٍ مصارع أفئدتهم على عطش، وتتحطّم آمالهم في رحمة تحت سنابك خيل الظّالمين وتتلاشى في تلابيب القسطل، وحيث يضيعُ صوتُ الإمام، وهو يذكّر القومَ بالله والرحْم، فالطّغاة المتحجّرة قلوبهم لا يكادون يفقهون حديثا، إنّما هي مشاهد استراتيجيّة استطاعت أن تحوّل الهزيمَة العسكريّة نصرا دينيّا مقدّسا تحقيقا لما كتبه الله في الأزل وتصديقا لخبر النبيّ القائل إنّ حُسيْنًا تقتله الفئة الباغية. ولكنّ الأهمّ من ذلك، بالنّسبة إلى التّأويليّة الشّيعيّة، أنّ حادثة كربلاء قد فَرَقتْ نهائيّا وإلى الأبد، بين معسكريْن: معسكر الحُسيْن ومعسكر «اليزيديّة»، وبين حزبيْن: حزب الله وحزب الشّيطان وتحوّلت «الحُسيْنيّة» إلى قيمة تختزل معاني «الخير» كما أصبحت «اليزيديّة» جماعا لكلّ «شرّ». ونتج عن هذا الفرقان معتقد جديد استمسك بـ «المظلوميّة» وتولّدت ممارساتٌ تعبّديّة جديدة على غرار العزاء والبكاء واللّطم والتّطبير، وبرزت إلى الوجود فضاءات دينيّة طريفة مثل الحُسيْنيّات و«العتبة الحُسينيّة» بديلا يُغني عن البيت الحرام وقبر الرّسول والمساجد، وتدرّجا تحوّل العزاء الحُسيْني مراسمَ وطقوسا غادرت صورها الأولى، حيث كانت بكاء وإبكاء ومراثيَ ونواحا، لتصبح مواسم ومراسم ومواكب ومسيرات كبرى ومشاهد تمثيليّة، وصارت «عاشوراء» زمنا مقدّسا لا يقلّ توهّجا روحيّا عن موسم الحجّ، وكان ذلك خاصّة تناسقا مع تتالي العهود البُويهيّة والفاطميّة والصّفويّة حين أصبح التّشيعُ مذهبا رسميّا للدّولة (1501 م). وهكذا استحوذت ظاهرةُ العزاء على ضمير الشّيعة بعْدَ مأساة الحُسيْن، وأصبحت مؤسّسة الزّيارة «ذات جذور عميقة في قلوب المسلمين». وتدرّجا مع الانتشار الواسع للمذهب الشّيعيّ في أنحاء متفرّقة من العالَم الإسلاميّ الّذي تدعّم بعد الثّورة الإيرانيّة (1979 م)، خضعت المراسم إلى تغييرات هامّة تأثّرا بالمناخات الثّقافيّة المحلّيّة وانخرطت في نسيج المعتقدات الدّينيّة، بل أضحت آليّة طيّعة بيد المؤسّسة تُسخّرها لتعزيز الشّعور بالانتماء وتنشيط العزم السّياسيّ؛ ذلك أنّها تسمَحُ بالتّحلّق حول المعنى الرّمزيّ و«واقع المجتمع في تجربة النّاس متأصّل في الارتباط بمجموعة مشتركة من الرّموز». وبذلك صار «الحُسيْن» قضيّة، وأيّ قضيّة.

2. الحُسيْن في الفضاء السّيبْرانيّ الشّيعيّ:

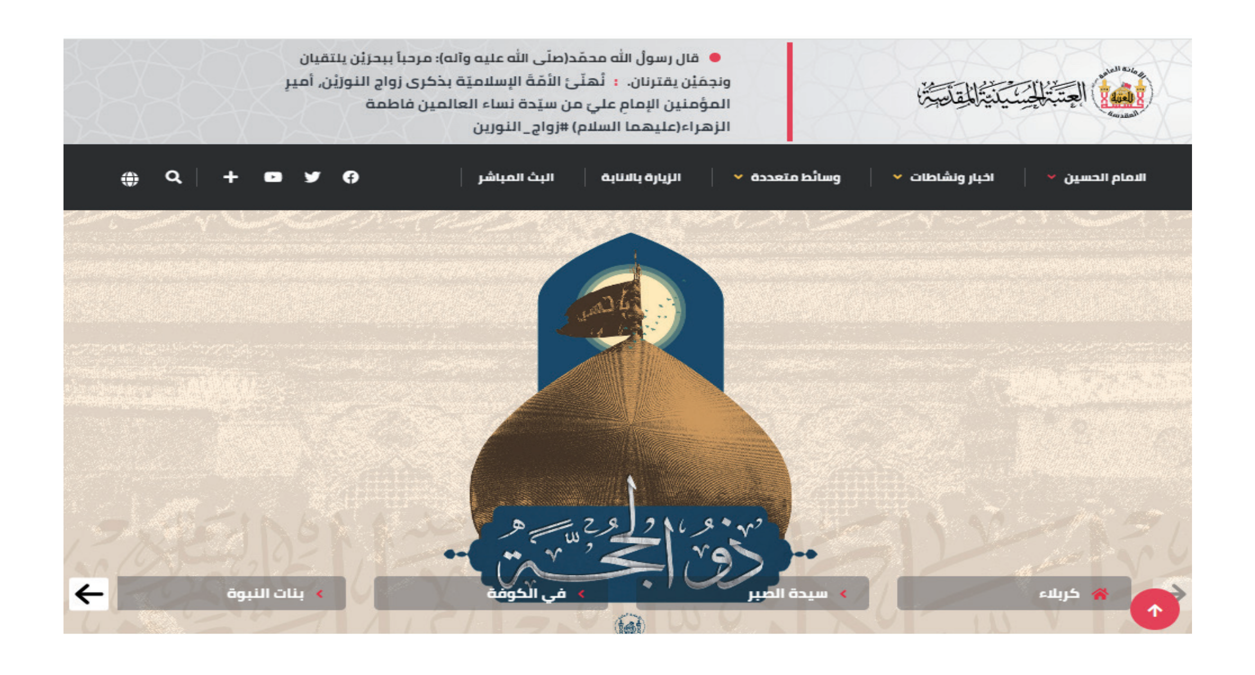
ليست الرّقميّة، بالنّسبة إلى المؤسّسات الدّينيّة الرّاسخة، ثقافة بديلة عن سرديّاتها التّراثيّة ولا منْوالا عقليّا مغايرا يُعيدُ قراءة نماذجها الفكريّة والمعرفيّة وأنساقها الاعتقاديّة وممارساتها الشعائريّة، وإنّما هي بيئة تكنولوجيّة جديدة يمكن استثمار تقنياتها الفعّالة وتطبيقاتها الهائلة لإحياء رسالة الدّين وبَعْث الدّينيّ عبر تسويقه في الفضاء الكونيّ المفتوح؛ ذلك أنّ المعتقدات الدّينيّة عند مَنْ يؤمنون بها «كلمات الله التّامّة» محفورة في «اللّوح المحفوظ» ومكتوبة في «كتابه العزيز» الذي «لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». وذلك الكتاب استوعب، وإلى الأبد، كتاب العالم، بما في ذلك فضاء السّيبر العلمانيّ،

وبالتالي، فإنّ الفضاء الرّقميّ ليس إضافة إلى جوهر الدّين ولا للدّينيّ ولا بديلا عنه، وإنّما المسألة برمّتها تكيّف وإعادة إخراج، وتحويلات تتمّ في سطح النّسق وأشكال الخطاب دون أن تقوّض مرتكزاته وتمَسّ من جواهره، وهي استراتيجيّة كنّا أشرنا إليها في مقالنا «النّصّ الدّينيّ الإسلاميّ في مُعترك الرّقميّة». ونستمرّ ههنا في التّعويل عليها حفرا في الخطاب الإلكترونيّ حتّى نجيب عن أسئلة مهمّة ترجمتها: كيف يتحوّل الموقع الإلكترونيّ «عتبة حُسينيّة مقدّسة؟» و«كيف يتمّ بعث الحُسيْن إماما رمزا وقضيّة بعثا رقميّا؟ وما هي الرّهانات الكامنة وراء تلك الاستراتيجيّات والآليّات؟ وإلى أيّ مدى يمكن أن يُعيد الفضاء السّيبرانيّ وَهَجَ الرّموز الدّينيّة الّتي أفقدتها الحداثة رصيدا مهمّا من ألقها وأثرها؟

1- 2- الموقع الإلكترونيّ عَتبةً مقدّسة:

لا شكّ أنّ الموقع الإلكترونيّ فضاء تكنولوجيّ في كلّ أبعاده، فهو مُصمَّم وفق أبنية شركة الويبْ العالميّة. وتفرض تلك الأبنيةُ وسْم الموقع بعنوان إلكترونيّ (Domain) يكون علامة تجاريّة دالّة في السّوق ومفتاحا (Key) يسمَحُ للفاعلين الافتراضيّين بترويج بضائعهم وتوسيع دائرة المستهلكين، وللمبحرين بالدّخول إلى مساحة الموقع ومشاهدة المعروضات والتّفاعل معها، كما تستدعي أنظمة الويبْ تنظيم مورفولوجيّة الموقع حسب توزيع بصريّ مُتْقَنٍ يُراعي جاذبيّة العرض الّتي تظهر من خلال ترتيب الأبواب والنّوافذ والتّطبيقات ومحرّكات البحث من جهة، وتوزيع الخطوط والصّور والألوان من جهة أخرى، حتّى توفّر مساحة الموقع «وليمة أكثر ثراء للحواسّ» ويكونَ الإبحارُ عمليّة سهلة ميسّرة وتجربة مغرية في الآن نفسه. غير أنّ التّكنولوجيا مشكّلة، أيضا، تشكيلا اجتماعيّا صارما، فهي تسترشدُ بالنّماذج الواقعيّة وتقتبسُ من الرّصيد الرّمزيّ الزّاخر، بل إنّ المنظّمة الدّينيّة بوصفها مؤسّسة عريقة لا يمكنها إدامة وجودها وأثرها بعيدا عن تلك النّماذج المادّية التّاريخيّة؛ لأنّها نماذج محفورة في أبنيتها العميقة، وفي وعي الجماعة المؤمنة كذلك. ولذلك، فإنّ السّؤال المطروح عليها في السّياق الثّقافيّ الجديد هو: كيف يُمكن نقلُ الفضاءات الواقعيّة التّقليديّة إلى فضاء السّيبر الجديد دون أن تفقد رمزيّتها الرّاسخة وأدوارها المألوفة؟

إنّ فضاء السّيبر ليس فضاء مادّيّا ولا أسراريّا، وإنّما هو عالَم افتراضيّ رقميّ علمانيّ، غير أنّ إنشائيّة العنوان الإلكترونيّ ومورفولوجيّة الموقع تلقي في وعي المُبْحِر، وهو ينقر على زرّ الدّخول، بانّه عند باب مرقد الحًسيْن، حيث يظهر المشهد التّالي:



يلحظ الباحثُ أنّ الدّوالّ الرّقميّة الّتي تظهر في الخطاب، إنّما هي شيفراتٌ معبّأة بالرّموز تُغيّر في العمق طبيعة الفضاء: فـ «العتبة الحُسيْنيّة» اسم للمكان الّذي دُفن فيه الإمام الحُسيْن في كربلاء، والّذي تطوّر من قبر مُعلَّم إلى عمارة قائمة الذّات ومزار يقصده المسلمون الشّيعة لأجل زيارته والتّبرّك به. وصار مكانا مقدّسا بفضلٍ التّقديس البشريّ وركنا من أركان الاعتقاد وفضاء من فضاءات العبادة. فكأنّ الفضاء الافتراضيّ يتحوّلُ مادّيّا واقعيّا. أمّا «المقدّسة»، فعلامة (Sign) تُعاند «العَلمانيّ» أو «الدّنيويّ» بكيفيّة تقوّي الوهمَ بأنّ الفضاء المعاصر يمكن تَدْيينُه. لكنّ الأهمّ من ذلك أنّ الموقع الإلكترونيّ إنّما يستمدُّ قداستَه من الحضور المُشعّ لشيفرة (الحُسيْن)؛ وذلك الإشعاعُ مزدوج مركّب من قديم ثاوٍ ومن جديد تكنولوجيّ: أمّا «القداسة القديمة»، فإنّها ترجع إلى احتضان «العتبة» لجسد الحُسيْن، فلولا وجوده بتلك التّربة ما كان لها من قداسة. وأمّا «القداسة الجديدة»، والّتي أصبحت لصيقة بالفضاء السّيبرانيّ، فإنّها لا ترتبطُ بالجسد، وإنّما بالشّفرة/(الحُسيْن) فهي علامة مائزة تفتحُ أبوابَ الموقع، بوصفها عنوانا إلكترونيّا، وتستقطبُ مكوّنات النّظام الإلكترونيّ المعقّد التّشعّبيّ وتضمّ أركانه وتقف عند كلّ باب ونافذة ونشاط. وإنّ هذا التّشكيل ليس مجرّد بناء تقنيّ فارغ بقدر ما هو ترجمة بواسطة الرّقميّ عن رؤية للكون (World view) تراه كونا مقدّسا الحُسيْن نواتُه ومحوره والرّوح الخفيّة الخفّاقة الّتي تسري في مكوّناته، وتلك البنية إنّما هي بنية عَقَديّة تؤمن بأنّ الأئمّة هم أركان الكون وأعمدته. ويعني كلّ ذلك، أنّ شخصيّة الحُسيْن وهي تتحوّل «روحا افتراضيّة» أو «روحا في الافتراضيّ» يمكنها أن تلعب أدورا جديدة في المجال العامّ الجديد وأهمّ تلك الأدوار هو قدْسنَة الفضاء الافتراضيّ أوّلا، واستقطاب التباع الافتراضيّين ثانيا.

إضافة إلى ذلك، تنهض شيفرة (الحُسيْن) بدوريْن مهمّيْن: أمّا أوّلهما فهو دينيّ روحيّ ويتمثّل في حمل المُبحرين على مغادرة الفضاءيْن الواقعيّ (العتبة الحسينيّة بكربلاء) والموقع الإلكترونيّ (العتبة الحسينيّة المقدّسة) معا، لمعانقة فضاء غيبيّ هو على الأصل مكان مفقود منشود حُلُمٌ وهو (الجنّة)، وتلك الجنّة استنادا إلى الحديث المرويّ المرفوع إلى المعصوم لها أبواب هم أهل البيت والحُسين «باب من أبوابها»، غير أنّ الخطاب السّيبرانيّ يوهم بأنّ ذلك الحُلم القديم البعيد يمكن أن يتحقّق بمجرّد الضّغط على زرّ الدّخول، فزائر الموقع الإلكترونيّ زائر لمقام الحُسيْن وداخل إلى الجنّة وتلك «نمذجة تهدف إلى خلق فضاء اجتماعيّ مقدّس».

ويُتيحُ الفضاء المُقدْسَن للزّائر الشّيعيّ أن يمارس الشّعائر الحُسيْنيّة الّتي تراكمُ له ألأجرَ وتنْظِمه في سلك حزب الحُسيْن وتحقّق له بالتّالي دخولَ الجنّة قبل يوم الحساب.

وأمّا الدّور الثّاني الّذي تنهض به شيفرة (الحُسيْن)، فيشمل ما هو معرفيّ، سواء تعلّق بالعقائد الشّيعيّة أو سيرة أهل البيت أو القرآن أو الأماكن المقدّسة كما يشمل الأنشطة الاجتماعيّة الّتي تنهض بها العتبةُ الافتراضيّة، والّتي تُدْمِجُ الفضاء الواقعيّ ليُصبح جزءا من الحياة.

2-2- آليّات بعث الحُسيْن إماما وقضيّة بعثا رقميّا:

نبني على افتراض تُؤكّده بحوث السّيميائيّة الاجتماعيّة ودراسات الخطاب النّقديّة Critical discourses studies ويدّعي أنّ كلّ خطاب أو نصّ إنّما هو شبكة من التّعاقدات تواطأ الفاعلون على بنائها، وإن اختلفت مواقعهم وأدوارهم: فالنّخبُ الرّمزيّة الّتي تحوزُ على منابع الخطاب وتمتلك السّلطة (Power) القادرة على التّأسيس والبثّ، إنّما تجد لخطابها تربة صالحة في مواقع المسْتَهْدَفين/ الجمهور سواء كانت مشاركة بالتّلقّي والتّقليد أو بالصّمت.

ويُنبّه هذا الافتراض إلى ضرورة العناية بسيرورات صناعة المعنى التّفاعليّة و«الاهتمام برصد مواقع منتجي الخطاب المؤسّساتيّة ومصالحهم وقيمهم ونواياهم ورغباتهم، وكذلك، مواقع المستهدفين المؤسّساتيّة ومعارفهم وقيمهم ومآربهم». ويبدو هذا الزّعمُ متناغما مع طبيعة فضاء السّيبر بوصفه مجالا للحرّية والمشاركة والتّفاعل يسمحُ للمتدّين ببناء عقائده وممارسة شعائره وتكوين معارفه بطريقة ذاتيّة.

وبناء على ذلك، نحفر في خطاب الموقع، مصدر البحث، من خلال تفكيك خطاب الفاعلين الاجتماعيّين، سواء كانوا من «النّخب الرّمزيّة» أو من المشاركين، حتّى نُعيد تشكيل صورة الإمام الحُسيْن كما يتمّ إخراجها في الفضاء الرّقميّ، وتلك مرحلة تمهّدُ لاستكشاف الرّهانات الجديدة المعقودة على رمز الحُسيْن.

2-2-1- النّظام المكتوب وبعث الحُسيْن:

يعي الفاعلون الدّينيّون الافتراضيّون جيّدا أنّ فضاء السّيبر فضاء تجاريّ قبل أن يكون مساحة للمعلومات، وأنّ العقلانيّة الرّقميّة قد قوّضت أساليبَ التّلقين التّقليديّة. ولذلك يعملون على تقديم المعلومات الدّينيّة في شكل بضائع خفيفة مُعدّة للتّرويج والاستهلاك من جهة، وإتاحة مساحات للمشاركة والتّعليق لفائدة الزوّار لاختبار الأثر الرّجعيّ (Feedback) الّذي يُساعدُ على بناء تعاقدات جديدة مع المضامين الدّينيّة من جهة أخرى، فالخطاب الرّقميّ إنّما هو خطاب يستهدف الوصول إلى المستهلك المثاليّ بدلا من المُنتَج المثاليّ.

يظفرُ زائر العتبة الافتراضيّة بنافذة اتّخذت «الإمام الحُسيْن» عنوانا لها. وقد تضمّنت ملفّيْن اثنيْن: ورد أوّلهما تحت لافتة «سيرة الإمام الحُسيْن»، في حين أُدْرِج الثّاني تحت عنو ان «الموسوعة الحُسينيّة»، ليكون «الحُسيْن» الإشارة الرّمزيّة الّتي تَهَبُ الخطاب خفقانَه الضّوئيّ بعبارة ميشيل فوكو (Michel Foucault)، ويلحظ الباحث أنّ المضامين رُتّبت في لوحات تظهر على النّحو التّالي:





بنات النبوة



صوت الثورة الحسينية

وتبدو اللّوحاتُ سابحة في ظلام عميق يُحاكي مشهدَ الكون الغارق في الحِداد، والأرض الّتي مُلِئت ظلمنا وجوْرا، والأفئدةِ المفعمة حزنا مقيما، ولكنّ قلبها أبيض ناصع؛ لأنه ينبضُ بما يتعلّق بالحُسيْن.

وتختزلُ المضامينُ سيرة الحُسيْن في جملة من المصطلحات هي: كربلاء/ سيّدة الصّبر/ في الكوفة/ بنات النّبوّة/ صوت الثّورة الحُسينيّة/ عاشوراء/ رجال الحقيقة/ مسلم بن عقيل/ مواجهة الانحراف الأمويّ/ مشورة الشّيطان/ بناء دولة على الدّماء/ المواجهة/ وريث النّبوّة/ من هو الحُسيْن/ الحُسيْن منهج الإباء/ المقدّمة.

والمصطلحات مشحونة بعنصر تأطير قويّ معبّأة بمعنى ثريّ، فهي مفردات المعتقد الشّيعيّ وعلاماته المائزة الّتي تقيم متن السّرديّة الإماميّة، والّتي يمكن إعادة ترتيبها كما يلي: الأماكن المقدّسة/ الشّخوص الرّمزيّين/ القيم الرّوحيّة/ الأعداء. أمّا المضامين فإنّها ليست مجرّد بيانات ومعلومات بقدر ما هي بنية نفسيّة وذهنيّة تُثوّرُ التّراثيّ العميق الثّاوي في الثّقافة وفي الأحداث الاجتماعيّة، لكنّ خفقانها في الفضاء السّيبرانيّ يُشْعِرُ المتديّن بالطّمأنينة على صحّة معتقده في عالَم فقد اليقين وبسلامة منهجه في خضم زاخر من «الانحراف» قديما وحديثا، بل إنّه يدفعه إلى الشّعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء إلى «الهويّة الحُسيْنيّة» بوصفها ترجمة عن الهويّة الإسلاميّة، فكأنّ مركزة المصطلح في قلب النّظام السّيبرانيّ توقير للمعتقد في النّفوس «لكسب سلام الرّوح وطمأنينة القلب إزاء تحدّيات الوجود». والمهمّ بالنّسبة إلى الفاعلين الدّينيّين أنّهم يعيدون بناء «سيرة الحُسيْن» في سياق ثقافيّ تبدو فيه سِيَرُ الأديان والعقائد بشريّة أكثر من اللاّزم.

تُجسّم اللّوحاتُ صفحات مكتوبة بأسلوب شعريّ ساحر يُحْيي أفانين بُلغاء العرب، ويُعوّل على المجاز والتّصوير المشهديّ لينهض بوظيفة تأثيريّة تسعى إلى تحقيق غايتيْن: أمّا أولاهما فهي عطف قلوب المريدين على الحُسيْن حبّا وتعلّقا وتقديسا من أجل أتّخاذه قُدْوَة. وأمّا ثانيتهما، فهي شحنُ أفئدتهم كُرها لأعدائه ونقمة تحثّ على طلب الثّأر. ومن ههنا يبدو الاستمرار في التّعويل على الاستراتيجيّات القديمة آليّة سهلة المداورة ناجعة بحكم أنّها جُرِّبَتْ فنجحت فهي الّتي سمحت للنّسق الشّيعيّ بالاستمرار عبر تاريخ متطاول من الأزمات. وتلك الاستراتيجيّات مهمّة جدّا من النّاحيتيْن الدّينيّة والسّياسيّة؛ ذلك أنّها تسمح بتحويل الصّراع الدّنيويّ على المُلك إلى صراع دينيّ بين «إسلام» و «جاهليّة»، فقد «واجه الحُسيْن عدوّا دمويّا شرسا وإعلاما فخما ينعق بالتّضليل، وأصناما اشرأبّت أعناقها تدعو النّاس إلى عبادتها، واجه الحُسيْن ابن الّذي كرّم الله وجهَه عن عبادة غيره، وسليلُ الأصلاب الشّامخة والأرحام المطهّرة أبناء الّذين مُسِحَت جباههم بتمريغها أمام (هبل) و(اللاّت) و(العُزّى)».

لكنّ الخطاب لا يتقّصدُ الماضي، بقدر ما يعمل على ترهينه المستمرّ (Réactualisation) فالحُسيْن قد قُتِل «ولكن» صوتَه لم ولن يموت، لقد ديس على صدره بحوافر الخيول، لكنّه زرع في الصّدور معنى الإباء ورفض الظّلم والتّجبّر والاستبداد». وبناء على ذلك، فإنّ (الحُسيْن) اليوم، وفي الفضاء السّيبرانيّ المزدحم بالهُويّات والمعبّإ بطوائف كثيرة تنحدر من أصلاب «أعداء الحُسيْن» ومن نسل «آكلة الأكباد»، ذلك (الحُسيْن) ليس

الشّخص التّاريخيّ ولا الرّمز الواقعيّ وإنّما هو «ضمير افتراضيّ»: ضمير كلّ باحث عن الجنّة، وضمير «الموقع الإلكتروني» به ينافس «إعلاما ضخما ينعق بالتّضليل»، وبذلك ينبعثُ الحُسيْن في تلابيب الخطاب الإلكترونيّ متخلّقا من طينته القديمة، لكنّ روحه سيبرانيّة معاصرة.

ونتيجة لكلّ ذلك، تتولّدُ في مساحة الموقع الإلكترونيّ تفاعلات حيّة عفويّة تقوم دليلا على الطّابع التّشاركيّ الّذي يُميّزُ الخطاب السّيبراني، فهو ليس منتوجا سلطويّا ممأسسا فقط، وإنّما هو كذلك، محصّلة تفاعل ثلاث دوائر متعاضدة: أولاها دائرة الفاعلين الدّينيّين النّاشطين في الموقع Co-actors. أمّا الثّانية، فهي دائرة المتفاعلين من الجمهور، وأمّا الثّالثة فهي دائرة المرجعيّة Reference والّتي تتضمّنُ ما يُطلق عليه: الاعتقاد المشترك Shared belief الّذي يُجسّم الرّهان الأقصى للخطاب بحكم امتداداته الضّاربة بجذورها في الأنساق الاجتماعيّة والسّياسيّة.

ولكي نُبرز أثر تلك الدّوائر في «تحويل المعتقد إلى شكل أو مظهر رمزيّ يتألّف من أشكال وشخصيّات حسّاسة في امتداداتها التّصويريّة» نعرض النّموذج التّالي:

كربلاء:



الرّيحُ ترفع خصلات رمالها لتنثر أديمَ العشق السّرمديّ، والشّمسُ الّتي تعرفُ وجهها أكثر من السّماء تشاطرها الذّكرى الدّامية، فالدّمعة الصّمّاء هي تذكرة المرور إلى طقوس الجُرْح في جسد المدينة تُسْكَبُ في الضّريح… كربلاء المكان الّذي لن يشيخَ بعد أن التحم مع الزّمان والرّمز لتشكيل لوحة الله في أرضه. الطّفُّ، عاشوراء، والحُسيْن، المشهد الّذي يتكرّرُ كلّ عام على مسرح الذّكرى.

… هذه هي النّهاية البداية… أو البداية الّتي لا انتهاء لها، تتجدّد كلّ عام. هو المشهد الّذي يحْمِلُ الماضي الحيّ الّذي يُزوّدُ المدينة بالحياة.

تعليقات:

غدير عبد الحيّ البحرانيّ: اللّهمّ اُرزقنا «شفاعت» الحُسين عليه السّلام.

مرضيّة أحمد: السّلام عليك يا أبا عبد الله الحُسيْن.

مصطفى حيدر: يا أمير المؤمنين، «أريد أنْجحْ».

Karama hamza: السّلام عليك يا سيّدي ومولاي، أبا عبد الله الحسين.

زينة جندي لهمود: يا حُسيْن.

آيات حسن خليفة: أحبّك أيّها الحُسيْن الشّهيد عليه السّلام.

ردّ إدارة الموقع: اللّهمّ أنتَ السّلامُ ومنك السّلامُ ولك السّلام وإليك يعود السّلامُ. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

نحفرُ في النّموذج اعتمادا على تحليل يؤلّف بين السّيميائيّ والتّداوليّ ويستفيدُ من نظريّة التّشكيل الاجتماعيّ للتّكنولوجيا، وذلك بتعقّب حركة الشّيفرات ومواقع الفاعلين الاجتماعيّين وأدوارهم ومواطن ظهور السّلطة وأدواتها، إضافة إلى رصد الأثر الرّجعيّ الّذي يظهر في تعليقات الزوّار، وهو ما يُمكّنُ من الكشف عن البِنَى العميقة المتحكّمة في الخطاب ونُطقه.

تُشعّ شيفرة (كربلاء) بصريّا وموقعيّا بوصفها عتبَة سيميائيّة، لتُعلِنَ حضور المؤسّسة؛ ذلك أنّ الفاعلين الدّينيّين الجدد هم من وضعوها ذلك الموضع. ومن ههنا تشرعُ العلامةُ اللّغويّة في أداء أدوارها الدّينيّة والاجتماعيّة؛ لأنّها معبّأة بالرّموز الّتي تواضع عليها الضّميرُ الجمعيّ. وبذلك تفقدُ اعتباطيّتها بمفهوم اللّسانيّات البنيويّة وتنخرط في التّداوليّ، فيتحوّل الدّالّ (The signifier) مدلولا (Signified) ويندغمُ الحدثُ (واقعة الطّفّ) بالمكان (مدينة كربلاء) فتفقدُ الجغرافيا بُعْدَها المادّيّ وتتلبّسُ بالرّوحيّ. ويؤكّدُ الخطابُ المكتوبُ تلك التّحوّلات، حيث تتوالدُ الشّيفراتُ من رَحِم (كربلاء): الرّيح/ الرّمال/ الشّمس/ السّماء/ الذّكرى/ الدّمعة/ الجُرح/ الضّريح/ الزّمان/ الله/ الطّفّ/ عاشوراء/ الماضي/ الحياة.

وكلّ شيفرة منها نصوص ومعتقدات ورؤى وأفكار وأحداث ومشاهد، ولكنّ الشّيفرات ليست كيانات منفصلة، وإنّما هي كيانٌ واحد، فمن ذلك أنّ صورة الطّبيعة تتناصُّ مع صورة زينب بنت عليّ بن أبي طالب، وأنّ (كربلاء) ليست غير «دمعة صمّاء» تُسْكَب في «الضّريح»، والدّمعة نفسها «زمان» يذوبُ في «الرّمز»، ومِنْه أنّ «كربلاء» و «الزّمان» و «الدّمعة» و «الضّريح» و «الطّفّ» و «عاشوراء»، إنّما هي «لوحة الله في أرضه» فهي

المعجزة، وهي ترجمة عن رؤية كونيّة تختزل «البداية والنّهاية»، وفي قلب البداية والنّهاية (الحُسيْن)؛ وذلك هو السّرّ الكامن من وراء وسْم الموقع الإلكترونيّ بـ (العتبة الحُسينيّة المقدّسة) واتّخاذ (الحسيْن باب من أبواب الجنّة) شعارا له، ويسمحُ فضاءُ الموقع للزّائر الشّيعيّ بأنْ يُحيي تلك الذّكرى الدوّارة افتراضيّا:



وذلك بأن يمارس طقوسه وشعائره ويلتجم بجسد إمامه. ولذلك، فإنّ (الحُسيْن) تشكّل رمزا رقميّا يمكن أن يُغري المسلمَ الشّيعيّ بخوض تجربة دينيّة غامرة في عالَم خائليّ مُعزَّز.

وعلى الرغم من جدّة الغلاف الرّقميّ، فإنّ الأثر قديم عميق؛ إذ تضربُ تعليقات المريدين على وتر الثّاوي الموروث: طلبا لقضاء حاجات الدّنيا (النّجاح) والآخرة (الشّفاعة) أو تعبيرا عن الحبّ والتّعلّق (أحبّك أيّها الحُسيْن) والشّوق والتّواصل (السّلام عليك/ يا حُسين). وبذلك تتعهّدُ المؤسّسة تدخّلات الزّائرين مرّة بعد مرّة عبر استنساخ خطاب نمطيّ يتجلّى في «ردّ إدارة الموقع» يذكّر بخواتيم شعيرة الدّعاء يُعلن «أن الحمد لله ربّ العالمين» على دوام «السّلام»، سلام الاتّباع. وهكذا، فإنّ (الحُسيْن) كنزٌ ثريّ بيد المؤسّسة، بواسطته تسوسُ أتباعَها وتراقبُ المعتقدات والطّقوس وتتحكّم في العقول.

ويتّضح، إذن، أنّ الخطاب الإلكترونيّ يعي جيّدا أنّ «هناك دائما أشخاصا يبحثون عن مساعدة روحيّة، وأنّ الأنترنت توفّرُ وسيلةَ للوصول إلى الجنّة[1]. وبناء على ذلك، يبدو إشعارُ الأتباع بأنّهم محروسون بأرواح مقدّسة تحقّق لهم أمنَ الدّنيا وسعادَتها وسلامة المصير، يبدو آليّة ناجعة تسمحُ باللّعب على أوتار الرّمزيّ الرّاسخ بوصفه «انعكاسا رائعا في أذهان البشر لتلك القوى الخارجيّة الّتي تُراقبُ حياتَهم اليوميّة»[2].

2 -2 -2 -النّظام السّمعيّ البصريّ وإحياء الحُسيْن:

استطاعت المؤسّسةُ الدّينيّة الشّيعيّة عبر تاريخها الطّويل أن تُتَرْجم معتقداتها إلى طقوس تؤلّف بين الدّينيّ والفنّيّ. وتشكّلت من ذلك ذاكرة حفظت السّيرة الذّاتيّة؛ ذلك أنّ الذّكريات سجلّات حيّة تنطلق من

1 - Rosland, I. J, Hackett, «Religion et Internet», *Diogène*, N°211, Presses universitaires de France, 2005, p. 92

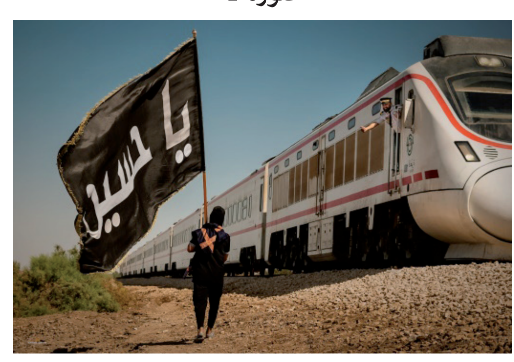
2 - Roger Frike and Rodney Stark, *The dynamics of religious economies*, Handbook of sociology of religion, Cambridge University Press, 2003, p. 96

التّذكّر فتخلّدُ الأحداث والأمكنة والشّخوص بوصفها مراجع وسيناريوهات تضمن دوام زيارة الماضي «حاملة مشاعر متنوّعة وموثّقة ومذكورة في السّرديّات والتّمثيلات والتّصوّرات»[3].

ومع التّطوّر الهائل للتّكنولوجيا الرّقميّة، طوّرت المواقعُ الإلكترونيّة مشاريع خاصّة يتمّ فيها تحويل الممارسات الطّقسيّة المألوفة إلى روايات صوتيّة ومرئيّة توفّر إمكانات جديدة لبناء المعنى. وبناء على ذلك، ندّعي أنّ المساحات الواسعة الّتي يُخصّصها الموقعُ الإلكترونيّ للأنشطة السّمعيّة البصريّة Audiovisual يمكنها أن تُقوّيَ عملَ الذّاكرة بكيفيّة تخلق تجارب ديناميكيّة وغامرة وجسديّة، وأنّ أداء الذّاكرة في الفضاءات الرّقميّة يتضمّنُ إعادة تشكيل اجتماعيّة تُساهمُ في تحويل الدّيناميكيّات الاجتماعيّة داخل المجتمع. ولئن كان ذلك ممّا يُشجّعُ على الوعي بالصّناعة البشريّة للمقدّس، فإنّه يعزّز البحث الرّاهن على استكشاف طرائق تسخير العُدّة السّيبرانيّة من أجل تقوية الرّوابط الحواريّة بين المتقبّل والمحتوى تحفيزا للجمهور «على الانتقال إلى سياقات أخرى من خلال التّلاعب بالصّوت والصّورة»[4].

وكي نُحقّق هذا الرّهان، نعتمدُ على قراءة عيّنات من الصّور المضمَّنة في ملفّ المكتبة الصّوريّة، وهي تجسيد لـ«صور زيارة الأربعين» وتظهر على النّحو التّالي:

صورة 1



المصوّر: أحمد غنيّ الحسيني.
عنوان الصّورة: دعم وعزم لصاحب الرّاية. 2023/09/17

صورة 2



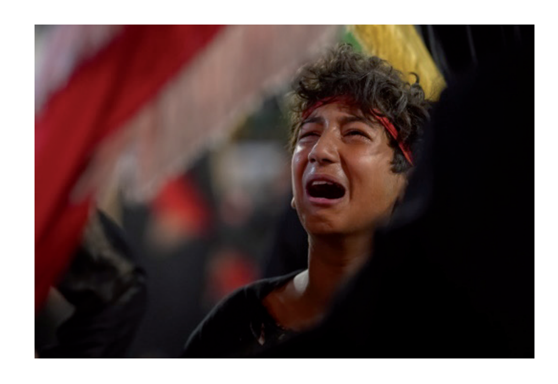
المصوّر: صاحب الشّريفي
عنوان الصّورة: إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهير 25/ 08/ 2023.

---

3 - Frederico Dinis, “Performativity of the memory of religious places through sound and image”, *Religious*, 14, 2023, p. 77

4 - Frederico Dinis, “Performativity of the memory of religious places through sound and image”, p. 1

صورة 3



المصوّر: محمّد فالح
عنوان الصّورة: دموع العشق الحُسيْنيّ
2023/09/07

صورة 4



المصوّر: مريم الموسويّ
عنوان الصّورة: الأربعين
2023/09/12

صورة 5



المصوّر: صاحب الشّريفي
عنوان الصّورة: مررت على قبر الحسين بكربلاء، ففاض عليه من دموعي غزيرُها.
2023/09/10

الصّور فوتوغرافيّة تُثبّتُ مشاهد حيّة من الفضاء الدّينيّ المعاصر، لكنّ عمليّة نقلها من الفضاء الواقعيّ إلى المساحة الافتراضيّة تُوهِمُ بأنّها قد اكتسبتْ استقرارَها النّهائيّ، لتصبح جزءا من الحياة والذّاكرة وبعضا من المعرفة والمعنى. ورغم أنّها تبدو مجرّد ترنيمة متتالية من «اُنظروا... تُشير إلى نوع من المواجهة»[5]، فهي قائمة على ما يُسميه فرويدْ «الانجذاب»، فإنّها خيالٌ دينيّ يربطُ الصّورة بموضوعها على أساس التّشابه وفعل الإيمان؛

5 - رولان بارت، **الغرفة المظلمة**، تأمّلات في الفوتوغرافيا، ت. هالة نمّر، المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة، ط 1، 2010، ص 11

لأنّها ليست حركات عفويّة ولا مشاهدَ اعتباطيّة عابرة، وإنّما هي تعبيرات رمزيّة عن عقائد راسخة، وترجمة عمليّة عن مشاعر غائرة في النّفس والذّاكرة أيضا. وهي، بحكم انتمائها إلى تقليد دينيّ عريق يتكرّر كلّ عام، لحظاتٌ تتعاودُ وتتشابه وتتراكمُ دون أن تُكرّر نفسَها، فهي تحوّل مستمرّ وإضافة إلى الماضي. ورغم ذلك، فإنّها قِطَعٌ من الذّاكرة التّي تتطايرُ في المكان باحثة عن نقوش وعلامات، ثُمَّ تُجمّعُ الذّكريات في طبقات لتعرضها على الجمهور حتّى يرى أجزاء مهمّة من ماضيه بكيفيّة تُعزّزُ الهُويّة والشّعور بالانتماء والتّميّز عن الآخرين.

إضافة إلى ذلك، لا تبدو الصّور مجرّد لقطات اقتنصتها كاميرا المصوّرين، وإنّما هي عمل فنّيّ إبداعيّ في كلّ مستوياته وأبعاده، لكنّه فنّ يسترشد بالدّينيّ بطريقة تُحوّلُ المصوّرين رواةً ووسطاء ومبدعين؛ فهم من يبنون السّرد الصّوتيّ والمرئيّ، وبذلك يلتحقون بدائرة الإكليروس يُجدّدون هُويّتها. ويتجلّى عملهم ذاك من خلال اختيار زوايا التقاط الصّور ومحتوى الصّور ولحظتها وعنوانها ورسالتها.

وتنهض زاوية النّظر بالتّحفيز على تقبّل العمل الفنّي بوصفه تعبيرا عن وجهة نظر دينيّة، فالصّورة الأولى تركّز على الفتاة الحاملة للرّاية وعلى القطار السّريع. وبقدر الثّقة التّي تملأ جوانح الفتاة الماشية وحدها، والتي تستمدّها من شعورها بخفقان راية (يا حُسين) حولها، يستعدُّ القطار للانطلاق مُحصَّنا بروح الحُسيْن من خلال يد سائقه الّتي تمدّ حاثّة الزّائرة على الصّعود إلى «سفينة النّجاة». ولذلك استجاب المصوّر «دعما وعزما لحامل الرّاية» وتلك هي الرّسالة المراد إيصالها إلى المُشاهِد.

أمّا الصّورة الثّانية، فقد ارتكزت على نصّيْن تراثيّيْن، أوّلهما يُجسّدُ ذاكرة المكان (السّلام على الرّأس المرفوع)، وينهض على تحويل قديم لنصّ الحادثة التّاريخيّة (الرّأس المقطوع). وأمّا النّصّ الثّاني، فهو نصّ الآية القرآنيّة الّذي ينتمي إلى سيرورة طويلة من الاحتجاج الكلاميّ (آية التّطهير) والتّراث التّأويليّ. ولكنّ الصّورة لا تكتفي بدورها المرجعيّ، وإنّما تلعبُ أدوارا جديدة في سياقها الثّقافيّ الرّقميّ؛ إذ تُحوّلُ (التطهير) مشهدا مرئيّا ومسموعا يشمل كوكبة الزّائرين المتجمّعين في الفضاء المقدّس.

وأمّا الصّورة الثّالثة، فقد عوّلت على تبئير البكاء بوصفه «دموع العشق الحسينيّ». ولئن كان البكاء سلوكا قديما موروثا وممارسة دينيّة وعبادة ثوابها الغفرانُ، فإنّ الإخراج الرّقميّ يُجسّمه حيّا عميقا حقيقيّا من خلال حركة الشَّعر المبعثر والفم المفتوح والعينيْن الطّائشتيْن، فهو بكاء مرّ ولوعة لاعجة وحُرقة موّارة تُشْعِرُ بأنّ الحُسيْن «قُتِل الآن وهنا»، فهو ليس الحسين الّذي أبكى فقْدُهُ الغابرين، وإنّما هو الحسيْن في العالَم السّيبرانيّ يبكيه عشّاقه الافتراضيّون. وبذلك يستمرّ الماضي في الحاضر نابضا متألّقا.

وأمّا الصّورة الرّابعة، فتعْزفُ على وتريْن: وتر تراثيّ يبعث المرويّات التاريخيّة الشّائعة الّتي تصوّر عطش الحُسيْن. ووتر جديد يُحوّلُ السّقيا من الفضاء الواقعيّ بوصفها تقليدا دينيّا في الجاهليّة والإسلام المبكّر والإسلام الشّيعيّ، إلى سُقيا افتراضيّة: ذلك أنّ مشهد القِرْبَة يحثّ الأفئدة العطشى على الشّعور ببرْدِ الماء، واسترجاع

لحظة العطش الهاربة بكيفيّة تشجّع على المعايشة والمكابدة. ولئن كان الماء من حيث هو مُتخيَّل موجودا، فإنّه، نتيجة لغياب الاتّصال الجسديّ، مفقود وهي اللّحظة عينها الّتي كابدها الحُسيْن في أثناء القتال حيث كان الّذين يقاتلونه يمنعونه من بلوغ الماء.

وأمّا الصّورة الخامسة، فإنّها تمزجُ بين مُكوِّنَيْن: الدّماء والماء. فالدّماء دثار الحُسيْن تذكّر بالحادثة ولكنّها تنقلها إلى سياق دينيّ من خلال اقتباس النّصّ القرآنيّ (المزّمّل) واستحضار الرّواية القائلة إنّ تلك الدّماء قد صعدت إلى السّماء فلم يقعْ على الأرض منها شيء. وأمّا الماء (الدّموع)، فإنّه يجري في نصّ شعريّ يذكّرُ بالمراثي، ويفيض على الدّماء ليترجم عن تعلّق أبديّ بالمكان (كربلاء/ القبر) وليرْسُمَ مشهدَ إحياء تمّوزيّ فتنبض الصّورة على وقع (قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)[6].

وهكذا، يتألّفُ خطابٌ لا يجذبُ المشاهدَ فحسبُ، وإنّما يولّدُ تفسيرات جديدة تنفلتُ من المألوف المنحصر في الجسدانيّة اليوميّة بكيفيّة تُخفّفُ من ثقل الحدود الدّائمة. ولئن كانت المشاهد محاكاة لصور يُتخيّلُ أنّها قد رُسِمَتْ ولأصوات يُتوهَّمُ أنّها قد سُمِعَتْ، ولأحداث يُتصوَّرُ أنّها قد وقعت، فإنّ مهمّتها في سياقها الجديد، إنّما هي عبور الحدّ الفاصل بين إمكانات التّفسير وإنتاج المعنى، إلى معانقة تجربة طقسيّة رمزيّة تتوسّطُ عمل الذّاكرة من جهة وعمل التّكنولوجيا من جهة ثانية. واعتبارا لذلك، فإنّ الصّور ليست محض استرجاع بسيط لمعلومات مُخزَّنَة بقدر ما هي «فِعل ديناميكيّ وإبداعيّ يتضمّنُ إعادة السّياق»[7]؛ وذلك يسمح بأن يظلّ الرّمز الدّينيّ حيّا في كلّ لحظة من لحظات الخطاب، فهي حياة سائلة تتجدّدُ في كلّ حين لتُعيد تشكيل حياة المُريد الشّيعيّ.

---

6 - المدثر: 74/ 2← 7

7 - Frederico Dinis, “Performativity of the memory of religious places through sound and image”, p. 8

خاتمة

لا شكّ أنّ الثّقافة الرّقميّة قد خلخلت المعتقدات وغيّرت في العمق رؤى العالِم وخلقت فضاءات جديدة لمعاينة الدّينيّ ومعايشته، ولكنّها في الأثناء أحدثت فجوات في حياة الإنسان المعاصر ليس أقّلها الشّعور بالفراغ والحاجة إلى المعنى والخوف من المصير. ولذلك لم تكن تجربة الدّينيّ في الفضاء الافتراضيّ الجديد مجرّد عودة شكليّة إلى معتقدات بائدة بقدر ما كانت بحثا عن ملاذات آمنة لإعادة المأسسة وإنتاج تفسيرات جديدة مشتقّة من روح العصر.

غير أنّ الرّؤية الدّينيّة المتحلّقة حول البنية الدّائريّة للزّمن الّتي تعانِدُ السَّيْرَ الأفقيّ للزّمن العلمانيّ، هي البنية العميقة التي تسمحُ بتشكيل الفضاء العلمانيّ الجديد تشكيلا دينيّا. وبناء على ذلك، يلتقي الزّمن السّيبرانيُّ الزّمنَ الماضي، بحكم أنّ ماضي الأديان ليس لحظة تنتهي، وإنّما هو زمن سرمديّ يُخلّدُ النّصوص والخطابات والأماكن والشّخوص ويجعل توظيفها عمليّة سهلة ممكنة في أيّ زمان ومكان. وبذلك تتداخلُ في المساحة الافتراضيّة الأبعادُ وتمتزجُ لغة الدّين بلغة الرّقميّ، ومن ههنا ينبعثُ في «العتبة الحُسينيّة المقدّسة» الحُسيْنُ جسدا وروحا وسيرة ويلتحم الزّائر به مادّيّا ونفسيّا في أثناء الاستخدام. وتتجدّد تجربة الحُسيْن في كل» علامة وكلّ إشارة، في النّصوص المكتوبة وفي الصّور والفيديوهات والخطوط والألوان والأصوات، ويتحوّلُ الفضاء الافتراضيّ عالَما روحيّا صاخبا يشعر فيه المستخدمُ بالحضور التّامّ والاندماج الكلّيّ. لكنّه ليس مجرّد انخراط في تجربة خائليّة غامرة، وإنّما هو، خاصّة، مشاركة أسطوريّة في تجربة خاضها الحُسيْن في التّاريخ ويعيشها زائرُ الموقع بروحه وجسده؛ وذلك هو المعنى العميق لعمل الرّمز الدّينيّ الّذي يمكنه، دائما، أن يُجدّد الاعتقاد ويقوّيَ الرّوابط الاجتماعيّة ويضمّ أطراف المجموعة المؤمنة ويُعزّز سلطان المؤسّسة على الأرواح والعقول، وكلّ ذلك يُفسّرُ قدرة المؤسّسات الدّينيّة العربيّة والإسلاميّة على الصّمود في مواجهة الحداثة الزّاحفة في وجه الرّؤى الدّينيّة والعَلْمانيّة على حدّ السّواء.

قائمة المصادر والمراجع

المصدر:

- العتبة الحسينيّة المقدّسة: https://imamhussain.org/arabic

المراجع باللّسان العربيّ:

الكتب والمقالات:

- القرآن الكريم.
- بارت (رولان)، **الغرفة المظلمة**، تأمّلات في الفوتوغارفيا، ت. هالة نمّر، المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة، ط 1، 2010
- الجمل (بسّام)، مقالة في الفِرق الإسلاميّة، مؤمنون بلا حدود mouminoun.com، الدّراسات الدّينيّة، يوليو 2020
- الطّبرسيّ (الفضل بن الحسن)، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، المطبعة الحيدريّة، ط 3، النّجف، 1970
- فيركليف (نورمان)، **تحليل الخطاب، التّحليل النّصّي في البحث الاجتماعيّ**، ت. طلال وهْبَة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط 1، بيروت- لبنان، 2009.
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصريّ)، **الأحكام السّلطانيّة**، ت. أحمد مبارك البغداديّ، مكتبة دار ابن قُتيبة، الكويت، ط 1، 1989
- المجلسي (محمّد باقر)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت- لبنان، ط 3، د. ت.

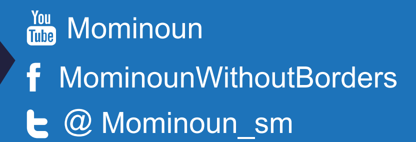
المواقع الإلكترونيّة:

- موقع الشّيعة: https://al-shia.org
- مركز الإشعاع الإسلاميّ للدّراسات والبحوث الإسلاميّة: https://www.islam4U.com
- الموقع الرّسمي للأستاذ حسين أنصاريانْ: www.Erfan.ir.

المراجع الأجنبيّة:

- Brontand (Jean Jacques), Dufour (Stéphane), «Figures du sacré», *Questions de communication,* Presses Universitaires de Nancy, Ed. Universitaires de Lorraine, 2013
- Cohen (Anthony), *The symbolic construction of community*, Routledge, London and New York, U.S.A.
- Dinis (Frederico), “Performativity of the memory of religious places through sound and image”, *Religious*, 14, 2023
- Ebert (Friedrich), Stif Tung, *Sufism Today, Contemporary Interpretations, On the community and its different patterns*, Edited by Moh, Abou, Rumman, Hashemite Kingdom of Jordan, National Library subrishion, 2020

- Finke (Roger) and Stark (Rodney), *The dynamics of religious economies*, Handbook of sociology of religion, Cambridge University Press, 2003.
- Hackett (Rosland, I. J,), «Religion et Internet», *Diogène*, N°211, Presses universitaires de France, 2005
- ‘Oleary (Stéphane), “Cyberspace as sacred space, Communicating religion on computer networks”, *Journal of American Academy*, LXIV, 14, 1994.
- Rahim (Mulla Bashir), *The history and philosophy of Azà of Imam HUsayn (a)*, Al-Islam.org.
- Vitullo (Allessandra), «Multisite churches, Creating community from the online», Special Issue, Vol. 14, Heidelberg University Publishing, 2019



info@mominoun.com
www.mominoun.com

